الفصل الثاني

★ في العلم بالحق وكتمانه والكفر به وتكذيبه.

الآيـــات

١ - ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾
(البقرة: ٤٢)

٢ - ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾
(البقرة: ٩١)

٣ - ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾
(البقرة: ١٤٤)

٤ - ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾
(البقرة: ١٤٦)

٥ - ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

(البقرة: ٢١٣)

٦ - ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾

(آل عمران: ٣، ٤)

٧ - ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

(آل عمران: ٧١)

٨ - ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

(الأنعام: ٥)

٩ - ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾

(الأنعام: ٦٦)

١٠- ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾

(الأنعام : ١١٤)

١١- ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾

(الأعراف : ٥٣)

١٢- ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا ۗ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴾

(يونس : ٧٦، ٧٧)

١٣- ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾

(مريم : ٣٤)

١٤- ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾

(العنكبوت : ٦٨)

١٥- ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا

﴿ مَآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾

(السجدة : ٣)

١٦- ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

(سبأ : ٤٣)

١٧- ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾

(غافر : ٥)

١٨- ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾

(الزخرف : ٣٠)

١٩- ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

(الأحقاف : ٧)

٢٠- ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾

(قَ : ٥)

من رحمة الله بخلقه أن هداهم للحق بآيات في الآفاق وفي الأنفس لا تخفى دلالتها . وبينات من الهدى والفرقان يرسل بها رسله وينزل كتبه فلا يؤاخذهم إلا بعد

بيان ولا يعذبهم إلا بعد تبليغ وإعذار فمنذ هبط الإنسان إلى الأرض وهداية الله تلازمه وبيناته ترشده وكلمة الحق تأتيه بلاغا من الله وإنذاراً لخلقه.

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾

(طه: ١٢٣ ـ ١٢٧)

وبهذا البلاغ والإنذار بدأت مرحلة الإنسان في الحياة وتوافدت الأجيال والقرون وتتابع الرسل يبلغون الناس كلمة الحق ويبصرونهم للقيام بالقسط:

﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

(النساء: ١٦٥)

هبط الإنسان إلى الأرض وقد هيأ الله له أسباب الحياة في جميع صورها المادية والمعنوية. فجعل له أسباب متاعه كما أقام له أسباب تبصرته وتذكرته في اتساق لا اختلاف فيه ولا تناقض بين آياته. وأقام ذلك كله على الحق الذي من أجله جاءت الآيات وقامت البينات وأنشئت القرون وتتابع الرسل.

ومع بيان الحق تباينت مواقف الناس ما بين راغب فيه وكاره له ومتبع ومعرض ومؤمن ومكذب. وتميزت صفوف الخلق من أول يوم نودى فيه بالحق. ورأينا المكذبين من

الآخرين يرددون ما قاله الأولون من المكذبين وكأنهم على إتفاق فيما بينهم على ما يقولون :

﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾

(الذاريات : ٥٢ ، ٥٣)

وكل مكذب لا يكون إلا بعد بيان وإنذار. فهو على علم بما كذب به وبلاغ يبطل حجته ويَقْطَعُ معذرته . فمن ضل منهم ضل على علم ومن آمن آمن على هدى وبصيرة .

والرسل يصدق بعضهم بعضا وينصر بعضهم بعضا . فلا خلاف بينهم فيما دعا إليه وآمنوا به وأرسلوا من أجله فهم إخوة دينهم واحد يقيمونه جميعاً ولا يتفرقون فيه . فكل من فرق بينهم فآمن ببعض وكفر ببعض فقد كفر بهم جميعاً . وفي بداهة العقل أن من صدق قولاً لأحدٍ ثم كذب من يصدقه في هذا القول فقد كذب بمن صدقه ووقع في تناقض بين إدعاء التصديق وإعلان التكذيب لحقيقة واحدة . .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾

(البقرة : ٩١)

وقع ذلك من أهل الكتاب بعضهم مع بعض حين أرسل الله عيسى عليه السلام مصدقا لما جاء به موسى مؤمنا به داعيا إلى ما دعى إليه . ووقع ذلك من اليهود والنصارى حين أرسل الله نبيه بكتاب مصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل . فوقعوا بتكذيبهم في تناقض مريب بين ادعائهم التصديق وإعلانهم التكذيب بالحق الواحد الذي بعث الله به كل نبي ورسول .

والحق لا تناقض فيه ولا اختلاف . . وإنما التناقض في النفوس والاختلاف في

الأهواء. والحق أعلى وأبقى وأمنع من أن يترك لمبتدع أو مدع ومفتر لا يستند إلى حجة أو برهان.

ومن أجله. نزل الله الذكر وحفظ الكتاب. أنزله بالحق. ومن أجل الحق:

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾

(الإسراء: ١٠٥)

وجعله عزيزاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. مهيمنا على رسالة الرسل جميعاً أمينا وشهيداً وحافظاً. يقرر الحق الذي جاءت به ويرد عنها إدعاء المضلين وتلبيس المبطلين. ويعلن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله بلا تفرقة ويهدى للتى هي أقوم وينذر ويبشر. ينذر أولئك الذين يكفرون ويفرقون:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾

(النساء: ١٥٠، ١٥١)

وَيُبَشِّر أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ وَلاَ يفرقون:

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

(النساء: ١٥٢)

وأكثر الناس تلبيسا وتدليسا هم أهل الكتاب من اليهود وفيهم نزل قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ (آل عمران: ٧١)

ومورد الآية في الحديث عن بني إسرائيل وتذكيرهم بنعمة الله عليهم ومطالبتهم بالوفاء بما عاهدوا الله عليه والإيمان بما أنزل مصدقا لما معهم.

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾

(البقرة: ٤٠ - ٤٢)

وقد أُجمل هذا العهد ولم يبين وَفُصِّلَ ذلك في مثل قوله تعالى:

﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ﴾

(آل عمران: ١٨٧)

وفي قوله:

﴿ وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي

﴿ وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾

(المائدة : ١٢)

فهذا مما أخذه الله عليهم ﴿ **لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ** ﴾ . فساقهم هواهم فكتموا ولم يبينوا وكتبوا بأيديهم ونسبوا ما كتبوه إلى الله ليشتروا به ثمنا قليلا . ولبسوا الحق بالباطل . والباطل بالحق . فآمنوا ببعض ما في التوراة وكفروا ببعض كصفات رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرها مما جحدوه طلبا لمنفعة عاجلة وحسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق .

والحق الذي كتموه ـ وهم يعلمون أنهم كاتمون ومحاسبون ـ هو محمد صلى الله عليه وسلم ونبوته وهم يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم . ومعنى قوله : ﴿ **ولا تلبسوا الحق بالباطل** ﴾ . أي لا تخلطوا الحق المنزل بالباطل الذي تخترعونه وتكتبونه حتى يشتبه أحدهما بالآخر . وقد فعلوا ذلك دون خشية أو خوف من الله :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾

(البقرة : ٧٩)

ومن أنكر الحق ـ وهو يعلم أنه الحق ـ كبرت جريمته وساءت عاقبته . وكذلك كان اليهود عندما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم . وقفوا من الحق موقف مبطل يعرف الرسول صلى الله عليه وسلم وهو حق وينكره ويعرف الكتاب المنزل عليه وهو الحق وقد جاء مصدقا لما بين يديه ويجحده :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(البقرة: ٨٩)

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(البقرة: ١٠١)

وكَذِباً قالوا نؤمن بما أنزل علينا لأن ما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم مصدق لما معهم فكفرهم به كفر بما أنزل عليهم . وهذا الجحود في مقابلة الرسل داء قديم فيهم واعتداؤهم على الأنبياء لا يقف عند الجحود والإنكار بل يتعدى ذلك إلى القتل :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

(البقرة: ٩١)

ويمتد بهم الجحود والإنكار إلى الكيد والصد . بل إلى الغدر ونقض العهد فإذا سئلوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم ـ وهم أهل كتاب ـ يسألهم من ليس عنده علم بالكتاب لم يتورعوا أن يفضلوا الشرك على التوحيد وعبادة الأصنام على عبادة الله :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ

﴿ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾

(النساء: ٥١، ٥٢)

كفروا وأضلوا غيرهم وحسنوا لأهل الشرك شركهم ﴿ **ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا** ﴾. وقع ذلك منهم حين حزبوا الأحزاب فلما قدموا على قريش قالوا هؤلاء أحبار يهود وأهل العلم بالكتاب الأول فاسألوهم أدينكم خير أم دين محمد ؟ فسألوهم فقالوا دينكم خير من دينه وأنتم أهدى منه وممن اتبعه. قالوا ذلك ليستميلوا المشركين لنصرتهم وقد أجابوهم وجاءوا معهم يوم الأحزاب وكان أن ردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال: وحاق ببنى قريظة ـ من اليهود ـ غدرهم وهم يظاهرون العدو وينقضون العهد متوهمين أنها ساعة فناء للمسلمين يجب أن تغتنم ولحظة قضاء عليهم لا يصح أن تفوت ونسوا الله فأنساهم أنفسهم فكان الجزاء من جنس العمل.

﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾

(الأحزاب: ٢٦)

كلما سنحت لهم فرصة غدر غدروا وكلما توهموا كسبا من خيانة وقعوا فيها:

﴿ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾

(الأنفال: ٥٦)

والعجيب في أمرهم أن نتائج أعمالهم تلاحقهم ولا يعتبرون ويخاطبون بأفعالهم وما دبروه في سرهم ـ وهم يعلمون أن الذي يخاطبهم نبي يوحى إليه ولا يتعظون ـ وكلما

جوزوا على فعل عادوا لمثله وكلما كشف غدر وقعوا في غيره ﴿ **ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين** ﴾. ومع كل فساد جزاء. ولن يقبل الله أن تبقى نار حربهم دون إطفاء. وقد تعهد سبحانه بإطفاء ما أشعلوه وإخماد ما أوقدوه: ﴿ **كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله** ﴾.

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(الأعراف: ١٦٧)

لقد عايشوا الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة. . وهو من هو: رحمة ووفاء ـ وبرا وصدقا. وحقا وعدلا. فعمدوا على إطفاء ما جاء به وإنكار ما عرف عنه. ووجدوا من دواب البشر من يؤاخيهم ومن رؤوس النفاق من يشايعهم ويبيت الشر معهم. وجبريل الأمين يتنزل بأمر ربه بآيات منها ما يكشف خباياهم وما تطويه صدورهم وما يدبرون من كيد ويعملون من عمل. والرسول صلى الله عليه وسلم ـ وهو يبلغ ما أُوحي إليه ـ يصدع بما أُمر به ويتلو عليهم آيات ربهم:

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

(آل عمران: ٧١)

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾

(آل عمران: ٧٠)

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾

(آل عمران: ٩٨)

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

(آل عمران : ٩٩)

يتلو عليهم ما أمر بتبليغه وفيه من التحذير ما فيه ومن الدلالة على الحق الذي يعرفون . ومع هَذَا لاَ يستحون ولا يتورعون . بل يعمدون إلى التشكيك والإساءة وإلقاء الشبهات ونشر الأباطيل . ما يتوهمونه دافعا للحق مطفئا لنوره ﴿ **ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون** ﴾ . فإذا تحول المسلمون إلى الكعبة بأمر من ربهم وَجَدُوا في ذلك فرصة لإلقاء الشبهات ﴿ **ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها** ﴾ .

وهم يعلمون أنهم ما ولوا وجوههم شطر المسجد الحرام إلا بأمر من الله ولكنها السفاهة تقود صاحبها إلى إنكار ما يوقن به وتدفعه إلى جحود ما يعلم أنه الحق ﴿ **وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون** ﴾ . فما الذي يدعوهم إلى التساؤل ﴿ **ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها** ﴾ . وهم يعلمون أنه الحق . وأن الرسول صلى الله عليه وسلم ما فعل ذلك إلا بأمر من ربه وإن تطلع إليه من قبل أو أحبَّه ﴿ **فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام** ﴾ . وهل كانوا مؤمنين حين كان يولى وجهه شطر المسجد الأقصى ؟ وهل دفعهم ذلك إلى إظهار الحق واتباعه أم قادهم الحقد والحسد إلى التكذيب والإعراض والصد والكيد :

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾

(البقرة : ١٤٥-١٤٧)

ما جاء من الله هو الحق. والحق عند هؤلاء يريدونه لهواههم فإن كان لهم فهم له مذعنون وإن كان عليهم تولوا عنه معرضين. يرون الحق لأنفسهم ولا يرونه لغيرهم ﴿ **ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن** ﴾.

فمن آمن منهم بالحق رموه بالكذب والبهتان. وهذا ما كان منهم عندما أسلم عبدالله بن سلام وهم يقررون أنه سيدهم وابن سيدهم وعالمهم وابن عالمهم فلما أعلن استجابته للحق الذي يعرفون وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله بسطوا ألسنتهم إليه بالسوء في نفس المجلس الذي قرروا فيه أنه سيدهم وحبرهم.

ولم أر شيئاً يدمر صاحبه ويجعله أهلا لغضب الله ولعنته كإنكاره لحقٍّ يعلم أنه الحق وتكذيبه لأمر يوقن أنه الصدق وافترائه على الله الكذب وظنه بالله غير الحق.

وكل من كان له قلب يرتجف حين يقرأ الآيات الموجهة لهم ويقشعر من التخويف والإنذار وهم يفعلون ما يفعلون. ويقولون لن تمسنا النار إلا أياما معدودات. سفاهة في التكذيب. وبجاحة في التعلق بالأماني:

﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

(البقرة: ٨٠، ٨١)

وكم من كوارث وقعت بهم وكم لِلَّه فيهم من آياتٍ ؟

﴿ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾

(يونس: ١٠١)

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى

﴿ ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

(المائدة : ٤١)

جميع الرسل جاءوا بالحق والحق واحد لا يختلف . ﴿ **وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم** ﴾ . وجاحد الحق من بعد علم لا يحظى من الله بهداية أو توفيق . وإنما يُهدى إلى الحق من أناب إليه ويفوز بالصدق من صدَّق به :

﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

(البقرة : ٢١٣)

والوعيد شديد لأهل الكتاب من نصارى ويهود وهم يُدعون إلى كلمة سواء تقرر الحق ـ وتفرد الله بالعبودية ولا تشرك به أحداً من خلقه . وتنفى أن يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله ـ يُدْعَوْن إلى ذلك فلا يستجيبون :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

(آل عمران : ٦٤)

والنداء ممتد والدعوة للأجيال ـ والقرآن محفوظ ـ لا تنقطع . والوعيد شديد لمن دعى إلى الحق فأباه وإلى العدل فآثر الجور. وإلى الدين الواحد فأبى إلا التفرقة بين الله ورسله . والقول بأنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض . الوعيد شديد لمن دعى إلى الإيمان بما أنزل الله فأبى إلا الكفر بآيات الله ، والقرآن ينذرهم وقد جاء مصدقا لما معهم يبين حقيقة ما أُنزل على رسلهم ويحذرهم من الخضوع لما وقع فيه أسلافهم من تحريف وتبديل وكتمان وإنكار والاقتداء بهم فيما زعموه من باطل أو سطروه من افتراء وكذب .

فمن أراد أن يعرف صدق ما جاء في التوراة فعليه بالقرآن ومن أراد أن يعرف حقيقة ما جاء في الإنجيل فعليه بالقرآن. ومن زعم أنه يؤمن بموسى وعيسى لا يكون مؤمنا بهما إلا إذا آمن برسل الله جميعا بلا تفرقة. والقرآن يهدى إلى الحق في كل ذلك وإلى طريق مستقيم. فقد أنزله الله بالحق ليقر ما هو حق ويرد ما هو باطل. والحق حدير أن يتبع. والباطل لصيق لابد أن يهلك ويذهب. والقرآن وهو الحق يتوافق مع التوراة والإنجيل توافق حق مع حق وهدى مع هدى ونور مع نور. والقرآن شاهد لا ترد شهادته. مؤتمن لا تنكر أمانته. مهيمن لا تخفى هيمنته. وهو يقرر أصل الدين في جميع الكتب وينادى بالتوحيد على ألسنة جميع الأنبياء والرسل. فمن خالف ذلك فقد كذب على التوراة وكذب على الإنجيل وافترى على كتب الله ونسب إليها ما ليس فيها:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾

(الأنبياء: ٢٥)

﴿ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾

(النساء: ١٧١)

والله هو الذي أنزل التوراة بالحق وأنزل الإنجيل بالحق وهو الذي نزل القرآن بالحق. الكل من عند الله. وما كان من عند الله فلا اختلاف فيه ولا تناقض وما كان من عند غير الله يجد الناس فيه اختلافاً كثيراً.

فلنقرأ التوراة في القرآن ولنقرأ الإنجيل في القرآن. لنؤمن بما جاء فيهما من الحق. ونرد ما نسب إليهما بغير حق:

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ

﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾

(المائدة : ٤٨)

ولنعرف الدين الذي بعث الله به الرسل جميعاً حتى نقيمه كما شرع الله ولا نَتَفَرق فيه كما أُمر رُسُلُ الله عليهم السلام :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾

(الشورى : ١٣)

وليس من وراء ذلك سبيل للنجاة من العذاب المهين :

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

(آل عمران : ١-٦)

ومِنْ غيرِ أهل الكتاب ترى أقواما على الكفر قد مالوا إلى التقليد والاقتداء بالآباء. فمن وجد أباه يخضع لحجر قلده فى عبادته ومنهم من قلد في عبادة شجرٍ أو بقرٍ أو بشرٍ أو شمس وقمر. ومنهم ومنهم.

﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (يوسف : ١٠٣)

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾

(يوسف: ١٠٦)

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾

(الأنعام: ١١٦)

ومن هؤلاء من جاءهم الحق فأعرضوا عنه وكذبوا به. علموه فأنكروه فلم يكن لهم عذر من بعد ما جاءهم الهدى وتبين الرشد من الغى. وتراهم مع كل رسول أهل تكذيب وجدال. والله عز وجل يأخذهم بذنوبهم ويجعلهم عبرة وتذكرة لِمَنْ بَعْدَهُمَ:

﴿ مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾

(غافر: ٤، ٥)

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(العنكبوت: ٤٠)

ما من نبي بعث في قومه أو رسول جاء أمته إلا كذبوه وقالوا ساحر أو مجنون:

﴿ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ

﴿ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾

(المؤمنون : ٤٤)

وهذا يقع من أكثرهم . والمستجيبون هم القلة . وكل هلاك يقع بالمكذبين يكون حديثاً وخبراً فيمن وراءهم يذكّر بالعاقبة والمصير وسنن الله لا تجامل أحداً ولا تحابى ولا تتبدل ولا تتحول .

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

(آل عمران : ١٣٧ ، ١٣٨)

وما وقع للرسل من قبل من تكذيب واستهزاء وقع لرسولنا صلى الله عليه وسلم :

﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

(يس : ٣)

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾

(فاطر . ٤)

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾

(فاطر : ٢٥ ، ٢٦)

وكل هؤلاء لم يكذبوا إلا بعد بيان ولم يؤخذوا إلا بعد بلاغ . ولم يُعرضوا إلا بعد تذكير بآيات الله :

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾

(الكهف: ٥٦، ٥٧)

أضلَّهم الله على علم وجزاهم بما يستحقون وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون.

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

(الأنعام: ٥)

ومورد الآية في الحديث عن المشركين المكذبين الذين جاءهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالحق فأعرضوا عنه وصدوا عن سبيله ولم تغن عنهم الآيات والنذر ولم تفدهم العظات والعبر:

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾

(الأنعام: ٤)

والمراد « بالحق » ما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم من عند ربهم المتضمن إخلاص العبادة لله والإيمان باليوم الآخر. وكل ما جاءهم به هو الحق من عند ربهم. والحق جدير أن يؤخذ بجد وأن يستمسك به وأن يحرص عليه وأن يقابل باحترام وتقدير لا باستهزاء وتكذيب. ولكن القوم غفلوا عن العاقبة واتخذوا آيات الله ورسله هزوا وغاب عنهم ما وقع لأمثالهم من قبل فحرموا هداية الله وحقت عليهم الضلالة ﴿ فقد

كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون ﴾ .

يقول ابن كثير: وهذا تهديد لهم ووعيد شديد على تكذيبهم بالحق بأنه لابد أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب وليجدن غبه وليذوقن وباله ثم قال تعالى واعظاً لهم ومحذراً لهم أن يصيبهم من العذاب والنكال الدنيوى ما حل بأشباههم ونظرائهم من القرون السالفة الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعا وأكثر أموالاً وأولاداً واستعلاء في الأرض وعمارة لها فقال:

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ ﴾

(الأنعام : ٦)

أى من الأموال والأولاد والأعمار والجاه العريض والسعة والجنود ولهذا قال : **﴿ وأرسلنا السماء عليهم مدرارًا ﴾** . أى شيئا بعد شىء . **﴿ وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم ﴾** أى كثرنا عليهم أمطار السماء وينابيع الأرض أى استدراجا وإملاء لهم . **﴿ فأهلكناهم بذنوبهم ﴾** . أى بخطاياهم وسيئاتهم التى اجترموها . **﴿ وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ﴾** . أى فذهب الأولون كأمس الذاهب وجعلناهم أحاديث . **﴿ وأنشأنا من بعدهم قرنًا آخرين ﴾** أى جيلا آخر لنختبرهم فعملوا مثل أعمالهم فأهلكوا كإهلاكهم فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم مثل ما أصابهم فما أنتم بأعز على الله منهم . والرسول الذى كذبتموه أكرم على الله من رسولهم فأنتم أولى بالعذاب ومعالجة العقوبة منهم لولا لطفه وإحسانه .

إن التكذيب بالحق سفه يُودى بصاحبه ويعرضه للشقاء فى الدنيا والآخرة :

﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

(الانعام : ٦٦ ، ٦٧)

ومورد الآية فى الحديث عن موقف قريش . قوم الرسول صلى الله عليه وسلم وقد

كذبوا بالقرآن وهو الحق الذى ليس وراءه حق . والرسول صلى الله عليه وسلم يبلغهم ويحذرهم من سوء المصير إن هم أعرضوا عنه ولم يستجيبوا له . . وما على الرسول الا البلاغ فمن اتبعه فاز ونجا ومن خالفه هلك وخسر وما حذرهم منه لا بد أن يقع « لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌ » . قال ابن عباس : أى لكل نبأ حقيقة أى لكل خبر وقوع ولو بعد حين . كما قال الله : ﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ وقال : ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ وهذا تهديد ووعيد أكيد ولهذا قال بعده : ﴿ وسوف تعلمون ﴾[1] » .

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ۚ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾

(الانعام : ١١٤)

ومورد الآية فى مواجهة المكذبين الذين يريدون أن يكون الداعى إلى الحق على هواهم وأن يكون الحق الذى جاء به وفاقا لما هم عليه .

وقد ذكر الماوردى فى تفسيره ـ بغير سند ـ سبب نزول هذه الآية فقال : « وسبب نزول هذه الآية أن مشركى قريش قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم اجعل بيننا وبينك حكما إن شئت من أحبار اليهود وإن شئت من أحبار النصارى ليخبرنا عنك بما فى كتابهم من أمرك فنزلت عليه هذه الآية[2] .

وقال فى قوله : ﴿ أفغير الله أبتغى حكما ﴾ فيه وجهان : (أحدهما) معناه هل يجوز لأحد أن يعدل عن حكم الله حتى أعدل عنه . (والثانى) : هل يجوز لأحد أن يحكم مع الله حتى أحتكم إليه .

والفرق بين الحَكَم والحاكم أن الحكم هو الذى يكون أهلا للحكم فلا يحكم إلا بحق . والحاكم قد يكون من غير أهله فيحكم بغير حق .

---

(١) ابن كثير.

(٢) النكت والعيون : تفسير الماوردى . أبى الحسن على بن حبيب الماوردى البصرى (٣٦٤ ـ ٤٥٠) الجزء الأول . ص ٥٥٦ . نشر وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية .

وقال القاسمى : قوله تعالى : ﴿ **أفغير الله أبتغى حكما** ﴾ على تقدير القول ، كما فى نظائره أى : قل لهم : أفغير الله أطلب من يحكم بينى وبينكم ، ويفصل المحق منا من المبطل . والمعنى : أطلب معبودا ، لأنهم كانوا يتحاكمون إلى طواغيتهم - وهذا عندى أظهر -

ثم رأيت فى - تنوير المقباس - الاقتصار عليه - حتى قال : (**أبتغى حكما**) . أعبد ربا . وأما كون الآية واردة على قولهم ﴿ **اجعل بيننا وبينك حكما** ﴾ . فلا يصح ، لأنهم بمعزل عن الانصياع لذلك . ﴿ **وهو الذى أنزل اليكم الكتاب** ﴾ . أى القرآن المعجز - « مفصلا » أى : مبينا فيه الفصل بين الحق والباطل ، والحلال والحرام ، وأنتم امة أمية ، لا تدرون ما تأتون وما تذرون» . انتهى .

وسواء كانت الآية فى مواجهة طلبهم الحكم أو فى الإنكار عليهم عبادة غير الله . فإن فيها تقريرا وإنكارا . . تقريرا لما يجب أن يكون من اتباع الحق الذى أنزله الله مفصلا مبينا واضحا والذى لا يجهله اولئك الذين آتاهم الله الكتاب من اليهود والنصارى ويعلمون أنه الحق . وإنكارا على الذين يخالفونه ويبتغون غيره .

يقول ابن عطية : وقوله تعالى : ﴿ **والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق** ﴾ . يتضمن الإشهاد بمؤمنيهم والطعن والتنبيه على مشركيهم وحسدتهم . وقرأ ابن عامر وحفص عن عاصم منزل بالتشديد والباقون بالتخفيف . والكتاب أولا هو القرآن . وثانيا اسم جنس التوراة والانجيل والزبور والصحف . ووصفه أهل الكتاب عموم بمعنى الخصوص ،وإنما يريد علماءهم وأحبارهم . وقوله : ﴿ **فلا تكونن من الممترين** ﴾ . تثبيت ومبالغة وطعن على الممترين» . انتهى .

ويقول البيضاوى فى قوله : ﴿ **والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق** ﴾ . تأييد لدلالة الإعجاز على أن القرآن حق منزل من عند الله يعلم أهل الكتاب به لتصديقه ما عندهم مع أنه عليه الصلاة والسلام لم يمارس كتبهم ولم يخالط علماءهم وإنما وصف جميعهم بالعلم لأن أكثرهم يعلمون ومن لا يعلم فهو متمكن منه بأدنى تأمل . وقيل المراد مؤمنو أهل الكتاب» . انتهى .

ولكن المكذبين لا يفيقون إلا حين يرون الحق عذابا يحيق بهم

عندئذ يطلبونه إنقاذاً لأنفسهم ـ وقد كان قريبا منهم .

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾

(الاعراف : ٥٣)

اعتراف بالحق فى دار الجزاء وإنكار له من قبل فى دنيا الابتلاء . ﴿ **قد جاءت رسل ربنا بالحق** ﴾ . . يقولون ذلك عندما تحقق وعيده ورأوا بأعينهم أن ما أخْبَر به ودعا اليه هو الحق وأن لا إنقاذ لأحدٍ إلا بالإيمان بالحق .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾

(سبأ : ٥١ ـ ٥٤)

لقد ضيعوا الإيمان بالحق الذى دُعُوا اليه فى الدنيا وهاهم ـ حين وقعوا فى العذاب ـ يطلبونه . وأنى لهم أن يتناولوا الإيمان بالحق وقد بعد عنهم وقد كفروا به من قبل وقد كان فى متناولهم . «يالها من خسارة لا إنقاذ منها نعوذ بالله منها ومن السبل الموصلة اليها ونرجوه حسن العاقبة فى الأمور كلها .

ومن عجب أن المكذبين يَكْذِبُون على أنفسهم ـ وهم يعلمون انهم يكذبون فهم يصفون « الحق » ـ الذى يعرفون أنه الحق ـ بغير صفته ليبرروا لأنفسهم البقاء على

الباطل يصفونه بكلمة تتردد على ألسنة المكذبين جميعا مع اختلاف الزمان والمكان .

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴾ (يونس : ٧٦ ، ٧٧)

أرسل الله موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه بآيات بينات . فلما جاءهم الحق قالوا هذا سحر مبين ـ وهم يوقنون انه ليس بسحر وإنما هو الحق . وقد رأوا بأعينهم بطلان السحر وإيمان السحرة بالحق « إيمانا لم يفلح فرعون بتهديده ووعيده فى صرفهم عنه أو إيثاره عليه بل قالوا فى ثقة وثبات :

﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾

(طـه : ٧٢ ، ٧٣)

وهم الـذين سمعوا منه .

﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ (طـه ٧١)

ومع هذا أعلنوا ايمانهم بالحق ليقينهم به وعلمهم أن فرعون ـ فى كبره وإجرامه ـ قد ينفـذ ما توعدهم به . وكان ذلك الموقف من السحرة كافيا فى صرف فرعون وملئه عن باطلهم بعد أن رأوا أن ما جاءهم به موسى ليس بسحر إذ لم يفلح من جاء بالسحر. وأن الحق هو الذى يغلب والذى يبقى وغيره يهلك ويذهب ـ ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون .

والحق لا يقبل التلبيس بل لا يقبل أن يخالطه باطل ولا يلبث الباطل أن يذهب جفاء إن هو حاول أن يلتصق به أو يزعم نسبته إليه . وبيان الحق لا يبقى فى ساحته ظلام ليل أو ظلمات إفك . إنه النور ولا يقوم مع النور ظلام . إنه السراج ولا يبقى مع الشمس عتمة ليل أو ظلام . فقد قال اليهود فى عيسى عليه السلام ما قالوا وقالت النصارى فى عيسى ماقالت . وجاء قول الحق من الله ليبطل كل قول غير الحق : ﴿ **ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون** ﴾. فليس بساحر كما قال اليهود . وليس ابن الله كما قالت النصارى . بل هو عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ولن يستنكف المسيح أن يكون عبدًالله ـ فهل انقطع المِرَاء عند اليهود أو النصارى ـ وهم يسمعون قول الحق وكلمة الفصل فى أمر عيسى عليه السلام أم ظلوا يمترون ويشكون ويتنازعون ؟ . هل استجابوا للحق وآمنوا به أم علموه فأعرضوا عنه ؟ . لقد قالها عيسى من قبل وسيقولها من بعد :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾

(الزخرف : ٦٤)

وعندئذ سيرى الذين قالوا على الله غير الحق أنهم قد ظلموا وضلوا ضلالا مبينا . والقرآن الكريم يناديهم جميعا تعالوا الى كلمة سواء واقبلوا الحق ولا تكذبوا على الله . تعالوا قبل أن تأتى الساعة الفاصلة وتساقون لمشهد يوم عظيم . تعالوا إلى الحق الذى جاءكم به عيسى وموسى وأُرسل به الأنبياء جميعا ولا تغلوا فى دينكم . تعالوا لنعبدالله وحده ولا نشرك به شيئا . تعالوا لتقولوا ما قاله الصادقون من اتباع عيسى :

﴿ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ
رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ
ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾

(آل عمران : ٥٢ ، ٥٣)

ولتكـونوا مع الصادقين من اتباع موسى وهم يهدون بالحق وبه يعدلون . ولا تكـونـوا كأولئك الذين يعلنون إيمانهم بالحق حين يدركهم الغرق أو يحضرهم المـوت . كونـوا كأولئك الـذين عرفوا الحق فطابت به نفوسهم وفاضت بالدمع أعينهم . ولا تكونوا كالذى طغى وتكبر :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾

(يونس : ٩٠)

ان افتراء الكذب على الله وتكذيب الحق هو أظلم الظلم . وأعظم الفساد . فاحذروا الوقوع فيه والإصرار عليه .

﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴾

(العنكبوت : ٦٨)

افترى على الله كذبا بأن زعم لله شريكا أو كذب بالحق لما جاءه يعنى الرسول صلى الله عليه وسلم أو الكتاب . فذاك إن وقع من الجاهلين فلا يليق أن يقع ممن عرفـوا الحق وجـاءهم البينـات . إن الجاهل الذى لا علم له بالحق قد يكذب ويسارع فى التكذيب عند سماعه للحق ولكن الذى عنده علم من الكتاب يجب أن يتدبر وألا يركن إلى تقليد فيسرع فى التكذيب .

ان مورد الآية فى عباد الاصنام والأوثان . ولكن العبرة فيها بعموم اللفظ « ومَنْ » من ألفاظ العموم فهى تنطبق بدلالتها على كل من زعم لله شريكا ونسب إليه سبحانه ما لا يليق به . وكل من كذب بالحق فى أى زمان أو مكان حاق به جزاؤه . والله قد توعد من كذب عليه أو كذب بالحق الذى أنزله بعذاب مقيم : ﴿ **أليس فى جهنم مثوى للكافرين** ﴾ اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه ونعوذ بك من النار وأهل النار .

ومن العجيب أن أهل الباطل يفترون على الله الكذب ويرمون من جاءهم بالحق بالافتراء. يلقون بدائهم على غيرهم . وهم يحسبون أن رميتهم قد أصابت. وما دروا أن الكذب لا يحيق إلا بأهله . وأن تقليدهم لآبائهم قد أعماهم وصرفهم عن النظر والتدبر ليعلموا الصدق من الكذب . والحق من الباطل :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۚ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾

(السجدة : ٣)

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

(سبأ : ٤٣)

هكذا تُلقى الكلمات من أفواه المكذبين دون نظر فيما يقولون . قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ؟ ولا يسألون أنفسهم ماذا كان يعبد الآباء ؟ ولماذا ينكر عليهم أن يقلدوا آباءهم ؟ كأن كل ما كان عليه الآباء شرف لا يمس وعز لا ينتقص ولو كانوا في ضلال مبين . وأي قيمة تبقى للإنسان إن هو قلد غيره فيما يدمّر كرامته ويذهب قيمته ويجعله دون الحجر الذي يعبده والصنم الذي يسجد له ؟ .

أي قيمة تبقى للإنسان إن هو أغمض عينه واقتدى بمن يهوى به في واد سحيق ؟ وأين النظر والتدبر لمن يقولون : ﴿ **إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون** ﴾ ؟ يقولون ذلك ولو كان ما جاءهم به هدى لهم ورحمة بهم . وانقاذا من النار . وما جاءهم به هو الحق وما كان عليه الآباء هو الباطل . ويقولون بأفواههم ـ عما جاءهم به وفيه إنقاذهم ـ ما هذا إلا إفك مفترى . بل يقولون للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين .

هل يمكن أن يسجل الإنسان على نفسه كفرا أشد من ذلك ؟ تكذيب بالحق وافتراء عليه وصد عنه وايثار لِمَا لا حجة فيه ولا برهان على من جاءهم بالبينات ودعاهم على بصيرة وحثهم على التفكر فيما يدعوهم إليه والتدبر فيما يأمرهم به :

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

(المؤمنون : ١١٧)

لا يملك الإنسان أن يصف هؤلاء إلا بما وصفهم به القرآن الكريم وهم يتخذون إلٰـهَهُم هواهم :

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

(الفرقان : ٤٤)

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾

(الاعراف : ١٧٩)

وهكذا يكون وقود النار :

﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾

(البقرة : ٢٤)

وهؤلاء قد علموا الحق فانكروه وجاءهم الصدق فكذبوه وهداهم إلى صراط مستقيم فسخروا منه واستهزءوا به :

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ

﴿ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾

(النساء : ١١٥)

وسنن الله فى خلقه لا تحابى ولا تجامل :

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾

(الأنعام : ١١)

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾

(غافر : ٥)

والجدال بالباطل لدحض الحق سمة كل مكذب بالحق لا يجادل بالحجة والبرهان ولا يقول بسند أو دليل وإنما جداله كفعاله بغى وسفه وعتو وفساد يقابلون به الحق ولا تسمع منهم كلمة رشد يقابلون به الرشد بل الإسراع الى البطش والمكر والكيد ﴿ **وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه** ﴾ . ﴿ **فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم** ﴾ . أهذا ما يقابل به الحق ؟ قتل للأبناء وما ذنبهم ؟ واستحياء للنساء وما جريمتهن ؟ والداعى الى الحق لم يقل شيئا إلا ربى الله ولم يَدْعُ إلى شىء إلا إلى عبادة الله وحده لا شريك له . ولم يطلب أجرًا حتى يُضاق به . ولم يعلن حربًا حتى يُقتل أبناء الذين آمنوا معه أو يستحيا نساؤهم . الداعى الى الحق رسول وماعلى الرسول إلا البلاغ . والذين آمنوا به لم يُكْرَهُوا على إيمان أو يسيئوا إلى غيرهم وهم يؤمنون فكيف يكرهون على ترك ما آمنوا به بقتل أولادهم ونسائهم ؟

هذا هو منطق الطغاة الذين لا يؤمنون بيوم الحساب . بل مسلك البغاة الذين

يظهرون فى الأرض الفساد. إنهم يضيقون بالحق لأنه يكشف باطلهم . ويبغضون من آمنوا به لأنهم خرجوا ـ بمشيئة الله ـ من عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق . والطغاة يريدون أن يستخفوا الناس لطاعتهم وأن يسخروهم لخدمتهم . وأن يخضعوهم لمآربهم وشهواتهم . وهذا فرعونهم يقول : ﴿ **ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد** ﴾ **ويقول فيما حكاه القرآن** : ﴿ **ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد** ﴾ . ويقول كبرا وعتوا وعنادا . ﴿ **ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموٰات فأطلع إلى إلٰه موسى** ﴾ .

ولم تفدهم موعظة مؤمن منهم أفاض فى تذكرتهم وأخلص فى النصح لهم وحذرهم عاقبة تكذيبهم وطغيانهم وفسادهم. نهاهم عن قتل الداعى الى الحق بقوله : ﴿ **أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم** ﴾ . وشرح لهم فى منطق سديد ورأى رشيد ﴿ **إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم** ﴾. بل خوفهم يوم التناد ودعاهم إلى اتباعه فيما آمن به ﴿ **اتبعون أهدكم سبيل الرشاد** ﴾. وبين لهم حقيقة الدنيا التى فتنوا بها والآخرة التى هم مقبلون عليها : ﴿ **يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار . من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأؤلئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب** ﴾.

وقارن بين موقفه وموقفهم وما يؤدى اليه ما هم عليه من دمار وعذاب ﴿ **ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار. تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ماليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار . لاجرم أن ما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار** ﴾. وختم نصيحته لهم بالتذكير والتفويض الى الله . ﴿ **فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد** ﴾. فهل استجاب الطغاة لهذا النصح النير وهذه الموعظة البالغة. أم بالغوا فى مكرهم وأصروا على كفرهم وطاردوا أهل الحق وتبعوهم حيثما ذهبوا ولم يوقف طغيانهم إلا عقاب الله النازل بهم وأخذهم بذنوبهم. وترى عندئذ فرعونهم قد

صار جبانا وكافرهم يعلن إيمانا وجاحدهم بالحق يشهد للحق ويعلن دخوله فى أهل الحق . ﴿ **آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين** ﴾ . وترى المكر وقد حاق بأهله وترى المفسدين وقد أخذوا بذنوبهم . وتبصر من نادى بالحق وأخلص له تراه هناك فى نعيم مقيم قد فاز وسلم ووقاه الله سيئات مامكروا .

﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾

(غافر : ٤٥ - ٤٦)

نعم نجا من آمن بالحق ودعا اليه ونصح وبلغ ونهى عن السوء وأُخذ الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون .

أليست هذه العاقبة كافية فى ردع المكذبين ؟ .

وكم لله فى خلقه من آيات - ﴿ **وَمَا تُغْنِى الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ فكل أمة عرفت ما وقع بسابقتها ومن الرشد ألا تقع فيما وقعت فيه وألا تسلك السبل التى أودت بمن كان قبلها . ولكن المكذبين هم المكذبون . ﴿ **فويل للمكذبين** ﴾ . ﴿ **كلما جاء أمة رسولها كذبوه** ﴾ . وقع هذا مع خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم مع أن القرآن يتلى عليهم ويذكرهم بما وقع للذين من قبلهم :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾

(الزخرف : ٣٠)

واستخفوا بمن جاءهم بالحق وسخروا منه :

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾

(الزخرف : ٣١)

والعظمة عندهم تتمثل فيمن يملك الشاة والبعير وفيمن يملك من متاع الدنيا -

ومتاع الدنيا قليل. العظمة عندهم عرض زائل وهذا مما يصاب به المكذبون . فتنة بالعاجلة ونسيان للاخرة :

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾

(الإنسان : ٢٧)

لم تغنهم الآيات ولم تفدهم العبر :

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾

(الجاثية : ٦ ـ ١١)

هكذا يفعل المكذبون مع كل نبى وكل رسول يملى عليهم شياطينهم فيردد الآخِرُون ما يقوله الأوَّلُون :

﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾

(الذاريات : ٥٢ ، ٥٣)

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

(الاحقاف : ٧)

ولا يثبتون حتى على ما يقولون بل هو تارة سحر. وتارة أساطير الأولين . واخرى تملية الشياطين . والذى جاءهم بالحق تارة ساحر. وأخرى شاعر أو مجنون . والذى يعلمه بشر. لا يستقر لهم قول ولا يطمئن لهم حال .

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ﴾

(ق : ٥)

لا قرار. ولا استقرار. ولا طمأنينة . ولا ثبات لمن كذب بالحق . بل هو الاضطراب فى داخل النفس وخارجها. فى الكلمة التى تقال . وفى العمل الذى يراد. وفى كل شأن من الشئون مرج واضطراب عقاب يقع بالمكذب فى دنياه ومرض ليس ـ من دون الحق ـ له شفاء. واذا رأيت نفسا قد اضطرب أمرها أو عصرًا قد ساء حاله فابحث عن موقع الحق فى هذه النفس وذلك العصر. إن الاضطراب فى العصر قد يُفْضى إلى حرب النجوم وقد يسوء الى أبعد من ذلك كلما بعد الناس عن الحق وتنكبوا طريق الإنصاف والعدل .

واذا رأيت الأمر قد وُسِّدَ إلى غير أهله فانتظر الحق فى قيام الساعة واستمسك بالحق ولا تخف فبالحق ومن أجل الحق تقوم الساعة . وإذا رأيت صراع أمم لغير غاية واضطراب شعوب فى متاهة فاعلم أنها فى الباطل قد أُخذت ومن كلمة الحق قد حرمت وألا مخرج لها إلا أن تستجيب لهذا النداء تعالوا إلى كلمة سواء ألا نعبد إلا الله . وإذا رأيت عقما فى التدبير وزحمة فى إصدار القوانين واضطرابا وتصارعا بين القيل والقيل. فلا تسل عما فى البنوك والجيوب ولكن سل عما فى النفوس والقلوب . هل للحق فى التعامل نصيب . أم هو الباطل تحرسه القوة وتؤثره النفوس ؟. وإذا رأيت الجريمة قد سرت والأمن قد اضطرب فاعلم أن شريعة الله قد عُطلت وأن قوانين البشر قد أُوثرت فوقع العقاب وحق العذاب.

وَإذا رأيت الفاحشة قد شاعت . وأن المرأة قد استدرجت إلى

مجالس الرجال وأندية الرجال وقد تركت قلعتها وأهملت أمومتها فأعلم أن جيلا خائبا خائرا سيولد لا يعرف حق الامومة ولا يملك شرف الرجولة قد يقتل أمه وأباه وهو يقول أريد أن أريحهم من الحياة .

ولا تسل عن الاضطراب والهرج والمرج اذا تنكر الناس للحق وأخسر ميزانه بين الخلق . لا تسل عن الاضطراب فى كل شىء . فان الحق عصمة لكل شىء . والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

obeikandl.com